المعجم العربي التاريخي

مُبررات المشروع

د. إبراهيم بن مراد

تعدّ اللغة عامّة أهمَّ مُعَبِّر عن هُويّة الجماعة اللغوية التي تتكلمُها، وأقوى شاهد على تاريخها الفكري والحضاري، وحالات التأثر بينها وحتى الجماعات اللغوية الأخرى. وقد يحقق ذلك كله في اللغة العربية، ولكن يضاف إليه أنها لغة أمة ذات امتداد واضح في الزمان والمكان، وهي لغتنا في كتابها الكريم، والحافظ لوحدتها، والحامل لثقافتها، وهي أقدم اللغات الحية تاريخيًا. فهي اللغة الحية الوحيدة اليوم التي مضى عليها في الاستعمال أكثر من عشرين قرنًا دون أن يلحق نظامها وقوانينها العامة تغيير يذكر، ثم هي أوسع اللغات مادة وأغناها رصيدًا معجميًا، وأقدرها على التعبيرعن المستجدات من المفاهيم والأشياء، يشهد بذاته التراث العربي الإسلامي الذي كتب بها عبر عصور طويلة، لم تشهد خلالها خمودًا، بل تجددت منها وسائل التعبير، فتعددت فيها الأساليب، وتطورت فيها الدلالات، فاكتسب كثير من الألفاظ والتعابير معاني جديدة، فلم يكن لنظام موجهًا إذن من الاستقرار أو التحوّل البطيء ما كان لأخواتها وأبنيتها وتراكيبها النحوية، بل إنه كان ومازال كشفًا مفتوحًا يتطور ويتجدد باستمرار مواكبًا لتطوّر حاجات الأمة العربية إلى التعبير عن أغراضها ومسايرًا يحدّدها حسب ما يطرأ عليها من التطوّر والتغير. على أن معاجمنا العربية القديمة والحديثة لم ترصد ذلك التطوّر فلقد كان جُل مؤلفها ومازالوا نقلة يعتمد لاحقهم على سابقهم فيُعيد تدوين ما سبق تدوينه ويهمل ما استجد من الاستعمال اللغوي في عصره. ولا شك أن هذا المنزع إلى التأليف المعجمي لا تقره قوانين تطور اللغة، ولا يدل على أن اللغة الموصوفة لغة حية واسعة الانتشار ولذلك صار من الضروري ونحن مزيد للعربية أن تكون في منزلة اللغات الحية الواسعة الانتشار — أن يتابع التأليف المعجمي العربي الحديث تطوّر ألفاظها ودلالالتها بتحديد أزمانها التاريخية وحفظ ما طرأ عليها من التغيير عبر العصور، وتبين الوشائج والصلات التي تربط بين الألفاظ والألفاظ وبين الدلالات والدلالات. والإفادة من هذه الثروة اللغوية الضخمة في فهم النصوص، وفي إحياء ما ينبغي إحياؤه

منها لتوظيفه في التوليد المقترح اليوم للتعبير عن المفاهيم التعليمية والحضارية.

والمعجم الذي يَقدِر على تتبّع تطوّر الوحدات المعجمية ودلالاتها عبر التاريخ هو المعجم التاريخي. والمعجم التاريخي للغة العربية هو المعجم اللغويّ العام الشامل الذي يجمع أشتات الوحدات المعجمية العربية – ما دون منها في المعاجم وما لم يُدوّن – وأن يؤرّخ لظهورها في الاستعمال وما طرأ على دلالالتها من التطوّر بحسب ما توفره النصوص. فإن النصوص هي مصادر التأريخ لأن التأريخ لوحدات المعجم ليس تأريخنا لأول ظهورٍ لها في اللغة عامة بل هو تأريخ لأوّل ظهورلها في نصّ مكتوب. قد يكون نقيشة وقد يكون صحيفةً، وقد تكون الصحيفة مطبوعة وقد تكون مخطوطة، بمختلف أجناسها ومختلف المعارف التي تمثلها والمستويات اللغوية التي تنتهي إليها، ومختلف العصور التي متبت فيها والأمصار التي استعملتها.

ولقد اهتم المحدثون بمسألة المعجم العربي التاريخي مكان من شواغل مجمع اللغة العربية بالقاهرة منذ تأسيسه، والمجمع هو الذي شجّع المستشرق الألماني أوغست فيشر على تأليفه ما سماه معجمًا تاريخيًا للغة العربية، فاحتفظ بعدد من جذافاته، ونشر نموذجًا منه تصحبه مقدّمة لغوية جيّدة في التأليف المعجمي. لكن الخشية من الإقدام على إنجاز المعجم التاريخي قد بقيت بين العرب كبيرة طوال القرن العشرين تقريبًا فإن المعجم العربي تكلف معالجته التاريخية عسرًا شديدًا نظرًا إلى امتداد استعمال العربية في الزمان وفي المكان. لكنَّ أواخر القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين قد عرفنا بوادر اهتمام حقيقية بإنجاز المعجم التاريخي فاهتمت به الجمعية العربية بتونس منذ سنة ١٩٨٩ فخصّته بندواتها العلمية الدولية الثانية (نوفمبر ١٩٨٩) التي نشرت أعمالها في العدد المزدوج ٥– ٦ (١٩٨٩– ١٩٩٠) من مجلتها العلمية ((مجلة المعجمية)). ثم انتهى بعيد ذلك – في بداية سنة ١٩٩٠ صدر مشروع وطني للبحث تموّله الدولة منحه المعجم العربي التاريخي وكان أعضاء جمعية المعجمية المؤسسين لفريق البحث فيه. لكن هذا المشروع قد توقف سنة ١٩٩٣ دون أن يتسع له الوقت لتحقيق نتائج علمية حقيقية، ثم بعث سنة ١٩٩٠ مشروع وطني لبحث جديد اسمه ((مدونة المعجم العربي التاريخي)) وقد موّلته الدولة هو أيضًا وعمل فيه أعضاء في جمعية

المعجمية هم في الوقت ذاته أساتذة جامعيون. وقد استطاع هذا المشروع – بدعم من جمعية المعجمية – أن يضع خلال السنوات الثماني المنقضية المدونة المعجمية المؤرخة للعصر الجاهلي باستقراء النصوص الشعرية خاصة، المنتمية إلى أربعة قرون من حوالي سنة ١٢٠٠ إلى سنة ١٩٠٩، أي انطلاقًا من أقدم ما عثر عليه من النصوص الموثقة حتى وفاة الشاعر زهير بن أبي سلمى التي سبقت البعثة النبوية الشريفة بسنين.

ثم صرف اتحاد المجامع اللغوية والعلمية العربية إلى المعجم العربي التاريخي عنايته بداية من سنة ٢٠٠١ فألف في اجتماعه المنعقد بالقاهرة من ٦ إلى ٨ نوفمبر ٢٠٠١ لجنة المعجم العربي التاريخي التي يحضر أعضاؤه الجلة هذا الاجتماع. وإذن فإنه يجوز لنا الآن أن نقول إن اهتمام العرب الفعلي بإنجاز المعجم العربي التاريخي قد بدأ يتحقق.

والحق أن لإنجاز هذا المعجم مسوّغات كثيرة منها ما أشير إليه فيما تقدم من القول، ومنها ما نريد إجمال القول فيه فيما يلي:

١– المسوّغات القوميّة:

١– اللغة هي عماد القومية عند الشعوب التي تتكلمها واللغة العربية – فتاكة لذلك جزء لا يتجزأ من القومية العربية. ولاشك أن للمعجم التاريخي دورًا أساسيًا في التعبير عن تلك القومية لأنه ةقد بيّن الاستعمالات المعجمية العربية في مختلف الأمصار التي استعملت فيها العربية.

٢– يؤكد المعجم التاريخي الروابط اللغوية الجامعة بين مستعملي العربية مشرقًا ومغربًا، قديمًا وحديثًا.

٣– يعزز المعجم التاريخي انتماء العرب إلى أمتهم لأنه سيؤكد أجياله الفكر العلمي العربي الذي عبرت عنه اللغة وانتقل منها إلى اللغات الأخرى.

٢– المسوغات العلمية:

١– إن تعامل العربية معاملة اللغات الحية الأخرى كالفرنسية والإنكليزية اللتين وضع لكل منهما معجمها التاريخي وذلك بأن توصف وصفًا لسانيًا دقيقًا بالتاريخ

لمفرداتها ولمعانيها مثلما وصف غيرها من اللغات الحيّة.

٢- أن يوصل حاضرها بماضيها فيربط بين مختلف حلقات استعمالها عبر تأريخها الطويل. فهي بين اللغات الحية اليوم اللغة الوحيدة التي حافظت على وحدتها فلم تنقسم إلى قديمة وحديثة ولم يداخل نظام استعمالها العام تغيير ذوبانها.

٣- أن يسدّ الخلل الذي غلب على المعاجم العربية منذ القديم إذا لم تعنَ بإظهار وحدة اللغة بالتأريخ لمفرداتها ولمعانيها عبر العصور لمعرفة ما طرأ في حياة اللغة من التطوّر دون أن تخرج عن نظامها العام.

٤- إن التأريخ المعجمي لا يهم اللغة فقط بل يفيد أيضًا في صرفها ونحوها وهو يفهم أيضًا أخوات اللغة العربية فإن التاريخ لوحدات المعجم يمكن من التأريخ للأخوات اللغوية ويبيّن ما يطرأ على المفردات من التطوّر في الأساليب وأنواع التراكيب النحوية.

٥- إن للمعجم التاريخي قيمة حضارية كبرى – إضافة إلى قيمته اللغوية – لأن التأريخ للوحدات المعجمية هو تأريخ للمفاهيم التي تحملها والأفكار التي ترتبط بها في العصور التي ظهرت فيها. فإن المفردات – وخاصة المصطلحات - تظهر عادة بعد المفاهيم التي يعبر بها عنها - ولذلك فإن ظهور المفردات هو دليل على ظهور المفاهيم التي تنشأ في العلوم والفنون.

٦- إن المعجم التاريخي وسيلة ضرورية لتأليف بقية معاجم اللغة العربية فهو يخلصها من نقائص منهجية ومعرفية كثيرة وخاصة في ركن التعريف الذي تعدّ في التأليف المعجمي أهم ما يتأسس عليه المعجم ولم يخرج في مختلف معاجمنا اللغوية عن الشرح اللغوي البسيط بينما بلغت عناصره المكونة بنيته في المعاجم الفرنسية والإنكليزية - نتيجة وجود المعجم التاريخي فيهما - أكثر من عشرة عناصر.

٧- إن المعجم التاريخي يظهر بوضوح ما بين اللغة العربية وغيرها من اللغات من الصّلات.

٣- المسوّغات التربوية التعليمية:

١- سيمكن المعجم التاريخي للغة العربية من مراجعة المعاجم المدرسية الموجودة

اليوم بتدقيق المعاني وإيجاد الشواهد المؤيدة للاستعمال.

٢- سيمكن أيضًا من تدقيق القواعد التي تدرّس في مراحل التعليم العامة لأن مما يؤرّخ له فيه الأدوات بمختلف أنواعها وهي الأسس في تركيب الجمل بل وفي العبارات المعجمية أيضًا. ولاشك أن تتبع ظهور الأدوات ومعانيها ووظائفها عبر التاريخ مفيد جدًا لدراسة التراكيب النحوية والأساليب.

٣- سوف يتيح للطلبة في الجامعات إنجاز بحوث ورسائل وأطروحات أكثر إحكامًا منهجيًا وعلميًا في مسائل المعجم النظرية والتطبيقية ومسائل الصرف والدلالة.

٤- المسوّغات الاقتصادية:

لقد أصبح تأليف المعاجم في البلدان المتقدمة وخاصة في أوربا وأميريكا صناعة مزدهرة لحاجة الناس الماسة إلى المعاجم، لكنها صناعة قائمة على التطبيق لنظريات لسانية في المعجمية قد أعان على ظهورها تأليف المعاجم التاريخية. ولذلك فإن المعجم التاريخي للغة العربية سيمكن من:

١- تطوير التأليف المعجمي العربي عامة ومراجعة المعاجم الموجودة – وخاصة إذا كانت معاجم مدرسية.

٢- تأليف معاجم جديدة ليس لها وجود اليوم، مثل المعاجم التأصيلية:

- المعاجم الافتراضية، المعاجم السياحية – معاجم العبارات المتلازمة- معاجم العلاقات الدلالية – كالترادف والاشتراك اللفظي والاشتراك الدلالي والتضادّ – المعاجم المختصة في مصطلحات العلوم والفنون وخاصة المصطلحات التراثية ومن شأن هذا النشاط التأليف المعجمي أن يشجّع على ظهور مؤسسات اقتصادية معجمية.